تطور التواصل في مرحلة الطفولة المبكرّة
جاكلين ساخس

للغة أساس بيولوجي. فعند الولادة، يكون دماغ الطفل ونظامه الحسّي مهيئين لاكتساب اللغة. فالطفل يسمع قبل الولادة ويتأثر الطفل بالأصوات التي حوله وهذا يفسر ارتياح الطفل الرضيع لصوت أمّه مقارنة بالأصوات الغريبة عليه. وبيّنت دراسة ميهلر وآخرون (Mehler et al. 1988) أنّ الأطفال في سن أربعة أيّام كانوا قادرين عل تمييز الأصوات التي تعرّضوا لها بلغتهم الأم الفرنسية عن اللغات الأخرى.
يصرخ الطفل عند الولادة ويستمر في إخراج تصويتات في السنة الأولى. وفيما يأتي ترتيب ظهور هذه التصويتات.

الجدول 1
ترتيب ظهور استجابات الطفل للأصوات والكلام في السنة الأولى

حديث الولادة من الولادة إلى شهر	يجفل من الصوت المرتفع
	يدير رأسه باتجاه الصوت
	يتم تهدئته بالحديث إليه
	يفضل صوت أمّه على أصوات الغرباء
	يميّز كثيراً من أصوات الكلام
شهر إلى شهرين	يبتسم عند التحدث إليه
ثلاثة إلى سبعة شهور	يستجيب تبعاً للتنغيم (ودّي أو غاضب)
ثمانية إلى إثني عشر شهراً	يستجيب لاسمه
	يستجيب ل "لأ"
	يميّز العبارات عن الألعاب (ياالله غمض عينك .. يلّا فتّح "بيّ)
	يميّز الكلمات عن الروتينيّات (يلوّح ل "باي باي")

الجدول 2
ترتيب ظهور التصويتات غير الكلامية في السنة الأولى

حديث الولادة	صراخ
شهر إلى ثلاثة شهور	إخراج أصوات الهديل cooing ردّاً على الكلام (أوو، آآآآ)
	يضحك
	يصرخ بأشكال مختلفة عند الجوع والغضب
أربعة إلى ثمانية شهور	يلعب ببعض الأصوات التي تتكون عادة من مقطع واحد (با .. دا)
ستة إلى ثمانية شهور	يناغيbabble بمقاطع مكررة (با با ... دا دا)
	يحاول تقليد بعض الأصوات
ثمانية إلى إثني عشر شهراً	يناغي بتغيير الصوامت والصوائت (با دا ... با بو)
	يناغي بتنغيم intonation يشبه تنغيم الجمل (الرطانة jargon)
	ينتج أشباه كلمات أو الكلمات الأولية protowords

اهتمت الدراسات الحديثة بالتواصل الذي يتم بين الطفل وأمه (أو مقدم الرعاية). فلدى الأطفال سمات بيولوجية تجذب الكبار لهم. فهم ليسوا سلبيين بل شركاء تواصليون ينمّون خبراتهم باستمرار. ويلعب

تواصل الطفل البصري دوراً مهما في التأسيس لعلاقة فعّالة مع من حوله. ويعزى جانب من الفرق بين تواصل الآباء مع الأطفال الطبيعيين وبين تواصل الآباء مع الأطفال الكفيفين أو التوحديين إلى وجود أو غياب التواصل البصري. ويتطور هذا إلى التواصل البصري المشترك gaze coupling. كما يجذب هديل الأطفال ومناغاتهم الكبار ل "التحادث" معهم.

التعبير عن التواصل القصدي (الهادف) Intentional Communication قبل الكلام

سمات التواصل القصدي

1. يتواصل الطفل بصرياً مع الشريك بالتزامن مع إصدار إيماءات gestures أو تصيويتات vocalizations محرّكاً بصره بين الشريك والشيء الذي ينظر إليه.
2. تصبح إيماءات أو تصيويتات الطفل أكثر ثباتاً ونمطية. فهناك طفل كان يفتح يديه ويغلقهما بدل محاولة الوصول إلى الشيء مع إخراج الصوت إه إه.
3. يمكن أن يصدر الطفل إيماءة أو صوت وينتظر استجابة الشريك.
4. يصرّ الطفل على محاولة التواصل إذا لم يفهمه الشريك ويقوم أحياناً بتعديل سلوكه لينجح في التواصل.

وظائف السلوك التواصلي المبكر

1. الرفض rejection
2. الطلب request
   - طلب التفاعل الاجتماعي request for social interaction
   - طلب لشيء request for an object
   - طلب لإجراء معين request for an action
3. التوجيه (لفت الانتباه) comment

وفيما يأتي مزيد من التوضيح.

1. الرفض. إيماءات أو تصويتات منتظمة لإنهاء تواصل ومن ذلك قيام الطفل بدفع شيء يعرض عليه مع إصدار إيماءات أو تصويتات.

2. الطلب. إيماءات أو تصويتات منتظمة يصدرها الطفل لجعل شريكه يقوم بسلوك ما أو لمساعدة الطفل لتحقيق هدفه.

- طلب التفاعل الاجتماعي. سلوكات لجلب انتباه الشريك والمحافظة على هذا الانتباه ومن ذلك إصدار الطفل لصوت بقصد الترحيب.
- طلب لشيء. استخدام إيماءة للتعبير عن الرغبة في الحصول على شيء. وتحل الكلمات محل الإيماءات في المستقبل.

- طلب لإجراء معين. إيماءات أو تصويتات منتظمة يصدرها الطفل لجعل المستمع ينفذ عملاً ما كأن يرفع الطفل ذراعيه ويصدر صوتاً عندما يريد من أحد أن يحمله.

3. التوجيه (لفت الانتباه). إيماءات أو تصويتات منتظمة يصدرها الطفل للفت انتباه الشريك بقصد مشاركته النظر إلى شيء أو حدث ما كأن يرفع الطفل شيئاً ويصدر اصواتاً ل "يريه" لشريكه أو يناوله إيّاه.

أشكال السلوكات التواصلية المبكرة

التأشير pointing

هنا تمتد السبابة بينما تبقى الأصابع الأخرى مقبوضة وتتمثل الاستجابة المناسبة من الأم مثلاً في النظر باتجاه الشيء المشار إليه. ويبدأ الأطفال بالاستجابة لتأشير الآخرين والتأشير إلى الأشياء عند عمر 10 شهور تقريباً. وعند بلوغ سنة يبدأ الاطفال بالتأشير إلى شيء ثم نقل نظرهم إلى المستمع لمشاركتهم النظر.

التصويتات vocalizations

يستخدم الأطفال التصويتات مباشرة قبل البدء باستخدام الكلمات التواصلية. فهذه الأصوات تمثل صلة الوصل بين التواصل غير اللفظي والكلام. ولوحظ استخدام الأطفال لتصويتات مع تنغيم صاعد للتعبير عن الطلب وتنغيم نازل للفت الانتباه.
تسمى التصويتات المنتظمة التي يستخدمها الطفل والتي تكون من ابتكاره وليست مستمدة من لغة الكبار الكلمات الأولية أو الكلمات الفريدة protowords. فقد لاحظ أحد الباحثين Raffler Engel (1973) استخدام طفله للصوت ي ي ي eee عند طلب شيء والصوت أو أو أو uuu عند الرفض.
هل هناك أدلّة كافية تشير إلى أنّ هذه الكلمات الأولية من إنتاج الطفل وليست محاكاة لأصوات كلمات الكبار؟ استند أحد البحوث التي دعمت هذا الرأي إلى بيانات جمعت من الأطفال الصم الذين لم يستخدم آباؤهم لغة الإشارة في التواصل معهم (Goldin-Meadow 1979). ولاحظ الباحثون أنّ هؤلاء الأطفال طوروا إيماءات عفوية لا تستند إلى إيماءات الكبار. وهذه الإيماءات تقابل الكلمات الفريدة عند الأطفال طبيعيي السمع.

*تقييم القصد التواصلي

تستخدم طريقة تسمى الملاحظة منخفضة الضبط low-structured observation. هنا يقوم الكبير باللعب مع الطفل بشكل طبيعي بينما يقوم باحث مدرَّب برصد سلوك الطفل أو تصوير تلك الجلسة بالفيديو. فعلى سبيل المثال، يسعى الباحث لرصد أمثلة على محاولة الطفل إشراك الكبير معه في النظر إلى شيء من خلال التأشير.
ويمكن قياس القصد الطلبي من خلال قيام الكبير مثلاً بوضع لعبة يحبها الطفل في مكان ما بحيث يراها ولا يستطييع الوصول إليها وبراقب الباحث سلوك الطفل. وهنا يكون السلوك القصدي بقيام الطفل بالتواصل البصري مع الكبير والتحول بنظره إلى اللعبة وإصدار تصويتات والإصرار ليحصل على ما يريد.
ويمكن قياس الرفض بعرض لعبة لا يحبها الطفل عليه وملاحظة سلوكه.

نمو الإدراك وظهور التواصل القصدي

تشهد السنة الأولى تغبرات في مقدرة الطفل على تشكيل الصور الذهنية للأشياء ويدل على ذلك سلوكه في المواقف التي عليه أن يتعامل معها لحل ما يواجهه من مشكلات. فعلى سبيل المثال، قد تسعى طفلة صغيرة للوصول إلى لعبة جذّابة ولكن إن اختفت اللعبة من أمامها، تتوقف عن المحاولة وتنسى أهتمامها بها. وفسر الباحثون هذا بأنّ الطفلة لم تحتفظ بصورة ذهنية للعبة تكون الأساس لاستمرار البحث عن اللعبة.

درس العالم السويسري بياجيه بالتفصيل تطور مقدرة الطفل على حل المشكلات. ويعتقد بياجيه أنّ الطفل مزود بانعكاسات معينة وعمليات رئيسة ليتعلم من خلال تفاعله مع الأشياء الموجودة في البيئة المحيطة به. وتبنى المعرفة عبر سلسلة من مراحل التطور الإدراكي. وساهمت بحوث بياجيه في تحسين فهمنا للعلاقة بين التفكير غير اللغوي واللغة. وفيما يأتي وصف موجز لمراحل التطور عند هذا العالم:

- المرحلة الحسحركية sensorimotor: من الولادة حتى 18-24 شهراً وفيها يبدأ الطفل تعلّم كيفية التفكير. ويتعرّف الطفل على الأشياء من خلال حواسه ولكن لا تتكوّن لديه في البداية صور ذهنية لها. ولكن تحدث تطورات مهمة في إدراكه اثنان منها يتصلان بإدراكه لمفهوم دوام الأشياء object permanence وإدراكه للعلاقة بين نشاطاته ونتائج هذه النشاطات (means-ends relations). ويعني مفهوم دوام الأشياء أنّ الأشياء موجودة حتى لو لم نكن نراها أمامنا. ولا يكون هذا موجوداً عند الطفل في المرحلة 3 من المرحلة الحسحركية (4-8 أشهر). فإذا اختفى الشيء من أمام الطفل، فإنه لا يبحث عنه. ولكنه يبحث عنه إذا اختفى خلف ستارة في المرحلة 4 (9-12 شهر). ولكن اكتساب هذا المفهوم لا يكتمل في هذه المرحلة. فعلى سبيل المثال، إذا اعتاد الطفل على رؤية الكبير يخفي الشيء في مكان معيّن، فإنه سيبحث عنه في ذلك المكان حتى بعد رؤيته للكبير يخفيه في مكان آخر.

أما مفهوم الوسائل والغايات أو السبب والنتيجة means-ends فيشير إلى فهم أنّ المشاكل يمكن أن تحل ذهنياً وبالتالي يمكن تحقيق الهدف بطرق أخرى غير المحاولة والخطأ. ففي المرحلة 3 قد يتعلم الطفل تحقيق ما حصل عليه مرّة ثانية عبر إعادة السلوك الذي أدّى إلى ذلك، دون أن يكون لديه فهم حقيقي لما يمكن أن يوصله إلى غايته. ولكن في المرحلة 4 يبدأ الطفل في إدراك العلاقة بين الأفعال والمخرجات. فعلى سبيل المثال، قد يسحب الطفل شرشف الطاولة ليحصل على لعبة بعيدة عنه. وهذا مثال مبكر على استخدام الأدوات. وفي مرحلة لاحقة يبدأ الطفل تجريب الأفعال ومراقبة النتائج. ويبدأ بتشكيل توقعات. وذكر بياجيه أنّ ابنته كانت تبدأ بالصراخ عندما يقف أحد، ذلك أنها لاحظت أنّ الوقوف كان مقدمة للمغادرة.

وتبين أنّ ظهور القدرة على التواصل القصدي مرتبط بالتطورات الإدراكية التي تحصل عند الطفل في المرحلة 4. ولا يبدأ الأطفال بالتواصل قصديّا قبل أن يدركوا العلاقة بين السبب والنتيجة وأنّ التغيير يمكن أن يحدث بطرق مختلفة منها استخدام شخص آخر لتحقيق ما يصبو إليه.